المخطوطات الإسلامية في جنوب الجزائر و أدوات البحث فيها.

دكتور: محمد صاحبي*

المقدمة

إذا كان الهدف الحقيقي من دراسات الآثار المادية كالمسلاّت و المعابد و المساجد و الكنائس والنقود مهما كانت الحقبة التاريخية التي تنتمي إليها- هو الكشف عن خباياها و استنطاقها من أجل التعرف على حياة الناس الذين شيدوها، و من ثمة وضع اللّبنات الأساسية لكتابة تاريخ الأمم الديني و العلمي والسياسي والعسكري.فإنّ للمخطوطات، باعتبارها آثارا مادية ومعنوية،قيمتها ودورها الريادي في إعادة بناء التاريخ العلمي للمجتمعات. وعلى هذا الأساس فقد خصّصت لها الهيئات العلمية في الدول المتقدمة مكانة متميزة، بحيث وضعت كل التدابير المادية والعلمية و التشريعية من أجل الحفاظ عليها من التلف أو السرقة؛ فشيّدت لها مخازن خاصة،متميزة بنمط يجعلها بمنأى عن الحرائق و السّرقات. وشرّعت في قوانينها بنودا، يُعتبر سارقها أو تالفها مجرما في حق المجتمع و الإنسانية جمعاء..

* قسم المكتبات والمعلومات جامعة وهران /الجزائر.

- الأهمية التاريخية و العلمية للمخطوطات:

للمخطوطات أهمية تاريخية و علمية خطيرة الشأن في حياة الأمم و الشعوب، إذ استطاعت بها العديد من الدول و الشعوب أن تلّم بجوانب كبيرة من حياتها الثقافية و الدينية و العلمية ، كما كان شأن الصينيين، الّذين كانوا إلى وقت قريب، يجهلون ما برع فيه أجدادهم في ميادين المعرفة العلمية المختلفة.بل كان الغرب إلى عهد قريب يستهزئ بالصين و الصينيين، وينفي أن يكون لهم علم بالمعنى الدقيق، حتى تكونت فرق من الأخصائيين والباحثين وراحوا يُنقبون بوسائل مادية ضخمة عن الإنجازات العلمية القديمة في مكتبات ومتاحف الصين وأوروبا وأمريكا..فكشفوا عن ثروات لم تخطر حتى على بال الصينيين أنفسهم. ولم يعد أحد يتساءل:هل كان للصين علم؟ بل أصبح الجميع يتساءلون: لماذا توقف سيل الإختراعات التقنيةو العلمية في الصين ؟

أما نحن العرب و المسلمين ، فلم يشكك أحد في وجود العلم المنظم في حياة أجدادنا العلمية و الثقافية . لكن لم يعد أحد حتى من أبناء الجلدة يتساءل عن مصير المؤلفات-المخطوطات التي صنعت مجد العلم وليس مجد العرب والمسلمين وحدهم.

و من أجل الوصول يوما إلى ماوصل إليه الصينيون من معرفة حول إنجازات أجدادهم ، علينا بالإضافة إلى الجهد المادي و المالي المعتبر، الإرادة السياسية أولا، ثم الإرادة العلمية ثانيا . وتكاد الإرادة الثانية تتلخص في توفّر شروط تقنية ،وأخرى علمية، أما الإرادة السياسية فهي من أبعد الإرادات عن المثقفين و العلميين..

- مصادر المخطوطات بالجزائر قبل الإحتلال الفرنسي:

تشير بعض االمصادر التارخية الفرنسية، عن وثائق حررها كتّاب جيش الإحتلال، ومقالات مبثوثة بالدوريات التارخية –الجغرافية مثل " المجلة الإفريقية " و "ليبيكا " ;و تقارير رسمية لضباط و مستشرقين فرنسيين،أن ما تمّ جمعه من مخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية و زواياها و شوارعها، غداة الإحتلال، لا يعد و لا يحصى . و ليس ذلك وحسب، بل اندهش هؤلاء الكتّاب أمام تنوّعها و جمال تجليدها، فقد اعترف البارون دي سلان الذي كتب تقريرا عن المكتبات بقسنطينة أن بعض المؤسسات و العائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة و أن في هذه المخطوطات نوادر تعتبر فذة في موضوعها وضرب على ذلك مثالا بمكتبة " عائلة الفكّون " الذي قال عنها أيضا شارل فيرو : أنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط بل حتى بالكتب المتعلقة بالبلاد الإسلامية المجاورة [1]

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج ١ بيروت : دار الغرب الإسلامي ١٩٩٨، صـ٢٨٧ (عائلة الفكون من العائلات المتميزة في نظر العثمانيين و كانت لها خطوة ‘إذ مكّنتها من وظيفة شيخ الإسلام .و لقد تنافست مع عائلة ابن باديس و قتذاك علميا و سياسيا و أيضا في الريادة الروحية ...للمزيد من المعلومات انظر المصدر نفسه ص ٣٩٤ و ص ٤١٦).

-Francis LALOE «Autour de l’incendie de la bibliothèque d’Alexandrie.. » in Revue Africaine : و انظر أيضا – n° 66, 1925 p. .103.

أما عن مصادرها إجمالا، فيمكن تلخيصها في النقاط التالية :
١- و تمثل عنصرا مُهمّا وهو ه جرة أهالي الأندلس نحو المغرب الإسلامي و خاصة بعد سقوط غرناطة .
٢- الإنتاج المحلي، مادة و علما،حيث اشتهر العديد في ذلك ...
٣- انتقالها عبرالحجيج و العلماء، من مصر و الحجاز، فقد روى الجبرتي في "عجائب الآثار " أن والده قد ذكر له أنه ورد عليهم في مصر سنة ١١٩٥، بعض الحجاج الجزائريين و سألوه عن كتب يشترونها، من بينها " زيج الراصد " للسّمرقندي الذي كانت لديه نسخة منه " بخط العجم في غاية الجودة و الصّحة والإتقان" اشتراها بإثني عشرألف دينار . و حاول الحاج الجزائري إغراء الشيخ الجبرتي بشراء نسخة منه، و لكن الجبرتي أبى أن يسمح في نسخته العزيزة عليه .و بعد أن أدى الرجل الجزائري فريضة الحج عاد إلى مصر و حضر لدى الشيخ الجبرتي رزمة كبيرة من الكتب من بينها نسخة من الزيج المذكور وقال له:" أيهما أحسن نسختك التي ضننت بها أو هذه." و قد كانت فيما يحكيه الجبرتي تزيد عن نسخته في الحسن صغر حجمها ، و كثرة التقييدات بهامشها .."فكان ردّ الشيخ الجبرتي: "كيف وصلت إلى هذه اليتيمة..؟ إن مثل هذه الكتب لا توجد حتى في "خزائن الملوك ..." [2].
٤- أما تركيا و استانبول تحديدا،فقد كانت من المدن التي كان علماء الجزائر يقتنون منها كتبهم، وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى مصر، وذلك بحكم العلاقة الخاصة التي كانت تربط الجزائر بهذين البلدين ..
٥- الاستنساخ : و كان هذا الأمر من الشيوع بمكان في الجزائر و غيرها من البلدان الإسلامية إذ كان الحريصون على جمع الكتب، ينسخون الكتب بأنفسهم، أو يستنسخون غيرهم، إما لندرتها بالنسبة للميسورين أو لعدم توفر الطاقة للحصول عليها بالنسبة للعلماء . و لقد شاعت هذه الحركة، حتى أنه كانت لها أسواق رائجة، واختصاصيون مشهورون، كان من بينهم : أبو عبد الله القطار الذي نسخ عددا من المخطوطات المتواجدة الآن بباريس،أو بمكتبة الجزائر العاصمة.

ووقف عدد مهمّ من المخطوطات على الجوامع و المساجد و الزوايا، سواء من طرف العلماء (و كانت هذه المسألة من العادات التي درج عليهاعلماء و أمراء الإسلام) أو من طرف العوام من الناس الذين كانوا يقومون بشراء الكتب ووقفها، معتبرين ذلك من الصدقات أو تقربا من الأولياء الصالحين الذين كانوا يُدفنون في بعض المساجد..

- <u>مصير هذه المخطوطات قبل الإحتلال الفرنسي للجزائر .</u>

تتجه غالبية المصادر بشأن مصير هذه المخطوطات إلى الإقرار بأن عددا غير يسير منها قد تلف أو أحرق أو هُرّب، سواء خلال الحروب و الصراعات في فترة

[2]– عبد الرحمان الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم و الأخبار.ج٣،القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٣، ص.٩٩.

القلاقل و الثورات التي شهدتها الجزائر و المغرب الإسلامي عامة، أو فترة النهب المنظّم غداة الإحتلال الفرنسي للجزائر .و ما تبقى منه تمّ "تهريبه" للمحافظة عليه نحو الزوايا و المقامات بالجنوب الجزائري أو عند الأشخاص المنتمين إلى الزوايا(الطرق الصوفية) في الشمال ...

فعندما تعرضت مدينة الجزائر مثلا ،إلى القصف من أسطول إحدى الدول الأوروبية، اضطر بعضهم إلى نقل مكتبة الجامع الكبير إلى قلعة مولاي حسن، وكان النقل يتم بواسطة الجمال لمدة ثلاثة أيام، و كانت الكتب تُنقل في "الغراير" . و لاشك أن نقلها على هذا النحو كما يقول أبو القاسم سعد الله، قد أضرّ بالكتب، كما أنه أدّى إلى تفريقها بين الأيدي أيضا ...

كما أوصى بعض أصحاب هذه المخطوطات بحمل مكتباتهم بعد وفاتهم إلى خارج الجزائر كالمدينة المنورة . فقد حكى العيّاشي في رحلته : إن الشيخ محمد بن اسماعيل بتكوران بأعماق الصحراء،قد أوصى أن تحمل مكتبته إلى الروضة النبوية مع جثمانه و أوصى كذلك بثلاثمائة دينار إلى من ينفذ ذلك، و لكن المكتبة قد عانت في الطريق قبل ان تصل إلى المدينة المنوّرة . فلم يصل من مجموع ألف و خمسمائة مجلد سوى مائة و سبعين كتابا..[٣] كما أوصى الثعالبى تلامذته بضرورة تهريب كتبه نحو الجنوب مخافة أن تقع في يد الكّفار...

لقد عرفت الجزائر برُمتها أحداثا مماثلة، طيلة تلك الفترة، الأمر الذي أدّى إلى إنتقال كتب نادرة بأعداد ضخمة نحو مصر و المغرب وسوريا على سبيل المثال،و لا تزال بعض هذه المجلدات لحد الآن تحمل أختام أصحابها أو أسمائهم أو أسماء نسّاخيها الجزائريين، كما هو الشأن بالنسبة لعدد لا بأس به من مقتنيات زاوية الهامل (بوسعادة) في مكتبة " فاس " المغربية، أو كتب المفتى ابن العنابي التي نُفيت معه من العاصمة نحو القاهرة، والتي لا تزال هي الأخرى، تحمل ختمه .

- المخوطات العربية في الجزائر مع بداية الإحتلال:

كتب "فرنسيس لالويه Francis LALOÊ " وهوأحد رجال القانون الفرنسيين في المجلة الإفريقية لسنة ١٩٢٥ مقالا، يرّد فيه على أحد المثقفين البريطانيين- الذي يساوي بين ما تدّعيه بعض الأقلام الغربية،حول إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندرية الشهيرة،و بين ماقامت به الحملات العسكرية الفرنسية من تدمير و بعثرة و إحراق و مصادرة للمخطوطات العربية- قائلا : إن القوانين التي كانت تحكم الجيش الفرنسي، كانت تحتم على الجنود عدم التعرّض لممتلكات الغير، و ذلك لسبب بسيط وهو أنّهم كانوا يتقاضون رتبة شهرية من الدولة، في حين أن المسلمين كانوا يعتبرون" نساء وممتلكات الأعداء غنائم" (؟!) إلاأنّ" لالوي"يعترف بعد ذلك، بأنّ مكتبات المدن الجزائرية العامة والخاصة قد تعرّضت فعلا للتلف والسّطو من طرف جنود الإحتلال،ويردّ هذا الأمر

[3]– أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق،ص.٢٩٠.

إلى الجانب البسيكولوجي للحرب، أو مايمكن أن يكون من "الأعراف"في كل جيوش العالم (؟!).[٤]

ويعترف كاتب المقال أي في موضع آخر،بأنّ الجنود الفرنسيين،كانوا يأخذون معهم عند رجوعهم إلى مدنهم و قراهم، بعض المخطوطات العربية،معتقدين بأنّها نسخ من القرآن،وقد شكّل بعضها النواة الأولى لبعض مكتباهم،مثل المكتبة الوطنية بباريس..

إنّ الأدهى والأمَرّ في شهادات بعض الضّباط وحتى بعض الدّارسين الفرنسيين حيال ما شاهدوه من هول ما صدمهم من إتلاف وسرقات لمقتنيات القصور والمساجد والمكتبات، أن ردّوا ذلك إلى الجزائريين أنفسهم،متهمين إياهم بما حدث. ويتضح هذا المنحى في التفكير الإستعماري،فيماقاله"بربروجر **BERBRUGER** **":** " لا يمكن الإعتقاد دائما بأنّ المنتصرين وحدهم،هم الّذين يقومون بعمليات السطو والسّرقة، بل إن سكان المدن من الأهالي يكونون في المقدّمة، وما يقوم به المنتصرون لا يعدو أن يكون تتمة لما بدأه السكان الأصليون.**"**[٥]

و من أبرز ما يُمثل عمليات السطو هذه، و يضفي عليها الطابع المخطط له، هو ما نجده في نفس التقريرالذي وضعه "بربروجر" حول دخول الجيش الفرنسي إلى مدينة قسنطينة،والّذي اتخذه "لالويه" وثيقة في دفاعه المستميت عن الجيش الفرنسي من التّهمة الموجهة إليه.

يُقرّ "بربروجر" بأنّه قد دخل مع مجموعة من الجنود إلى منازل كل من بن عيسى، وكان من أهمّ مساعدي أحمد باي، وأخيه محد العربيقاضى قسنطينة. و في أثناء ذلك، لاحظ أن ممّن أوكلت إليهم مهمة الدّفاع عن تلك المنازل و القصور، "من القبايل" هم الّذين بادروا بتكيسر الصناديق و الخزائن ، بعدما تأكّدوا بأن استماتتهم لن تجدي نفعا . و قد كانت تلك الصنايق تحوي نفائس المخطوطات العربية..[٦]

لقد قام "بربروجر" نفسه، بتجميع ما سمحت به الظروف من مخطوطات نفيسة،كانت ملقاة في باحات القصور و المنازل و الجوامع، مصطحبا من أجل إتمام " هذه المهمة النبيلة " مجموعات من الجنود الفرنسيين.. وعندما تبيّن لبربروجر بأنّ الأمر قد يتعقّد أكثر فأكثر، انكفأ يشتري من الجنود الفرنسيين ماخبّؤوه في معاطفهم..[٧]

على كل حال،إن ما يمكن استخلاصه هو أنّ جميع المدن الجزائرية، وليس قسنطينة وحدها هي التي تعرّضت للسّطو، بل إن الجزائر العاصمة و وهران و تلمسان و

---

[4] – Francis LALOE Op.cit.p.p : 96-97.

[5] –Op.cit, p.103.

[6] – Op.cit.p.103.

[7]- - يقول "لالويه" في تقريره هذا ما يبيّن أن أمر تجميع المخطوطات و المُقتنيات الأخرى مثل الجواهر و الأبلسة الفاخرة، كان بإيعاز من السلطات الإستعمارية،حيث شكّلت لجنة من العلماء والمؤرخين على غرار تلك التي صاحبت حملة نابليون على مصر،يترأسها الجنرال "بيريقو **PEREGAUX** "، وذلك من أجل دراسة و ترتيب و تصنيف ما تمّ جمعه ..

- أنظر المرجع السابق،ص١٠٥.

معسكر و بسكرة وغيرها من المدن قد تعرّضت لأبشع صور الإتلاف و التدمير،و ما لم يستطعه جنود الإحتلال، تمكّن منه الغوغاء من أهالي المدن والقرى، إذ تركت لهم جحافل الجنود الإستعماريين، الباب مشرعا من أجل إتمام الحملة التحضيرية (من الحضارة). وما أشبه الأمس باليوم، حيث تتعرّض بغداد، رمز الحضارة العربية الإسلامية وعنوانها، إلي " الدمقرطة" الأمريكية، بنفس الأساليب أو أبشع مماّ تعرّض له إخوانهم الجزائريون في الثلاثينيات و الأربعينيات من القرن التاسع عشر..

- الشروط التقنية والعلمية للتصدي إلى مشكلات المخطوط في الجزائر:

من المهم التذكير بأن عملية وضع المخطوطات تحت تصرف الباحثين، تحقيقا أو اطّلاعا،، تستدعي أن تسبقها خطوات أخرى مهمة، ليست من مهام الباحثين و المحققين نبقدر ما هي من مسؤوليات مراكز وجود المخطوطات، سواء كانت مكتبات عامة أو مكتبات خاصة، مثلما هو شأن مكتبات الزوايا و العائلات..

ولايخفى على مسيّري هذه المؤسسات الإعلامية (باعتبار أن كل مكتبة هي مؤسسة ذات وظيفة إعلامية) أنه لايمكن للمشتغل في حقل المخطوطات القيام بعمله على أكمل مجه إلا إذا تظافرت شروط علمية و تقنية و ثقافية هامة. و من أجل ذلك عمدوا إلى البحث و التنقيب عن الوسائل المنهجية الكفيلة بحل هذا الإشكال.

ومن هذه الشروط مثلا ، الرجوع إلى الفهارس العامة و الخاصة للمخطوطات المنجزة في كل من المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة أو فهارس مكتبات المغرب الأقصى، وتونس؛ بالإضافة إلى البيبليوغرافيات العربية و الأجنبية المهتمة بالتاريخ الثقافي الاسلامي ، سواء بالمشرق العربي أوبمغربه ، مثل " كشف الظنون " لحاجي خليفة أو " تاريخ الأدب العربي " لكارل بروكلمان أو غيرهما . غير أن أهم تلك الفهارس و البيبليوغرافيات بالنسبة لطبيعة المخطوطات المتواجدة بالجزائر و المغرب العربي عامة، هي تلك الموضوعة من طرف بعض المستشرقين و المهتمين بالمخطوط الإسلامي بالجزائر مثل العمل المنجز من طرف المستشرق الفرنسي " أدمون فانيان " و هو العمل الذي ينم على معرفة و دراية واسعة بالثراث العربي الإسلامي . و الشيءنفسه يمكن أن يقال عن المستشرق الفرنسي الآخر " رونيه باصي" الذي وضع كتابا عن " المخطوطات العربية " بالمنطقة، خصّ فيه مخطوطات زاوية الهامل بعناية خاصة ؛ وقد كان ذلك خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشرة.

و من الشروط التي لا بد من توافرها لدى المهتمين بالمخطوطات، يمكن ذكر مايلي :

أ- الشروط التقنية :

- المعرفة الكاملة بعالم المخطوطات من الناحية المادية أولا، لأن هذه المسألة جوهرية في التحقّق من المادة الأصلية دون غيرها .

١- المعرفة الواسعة بميدان التجليد (الجلد و أنواعه) .

٢- الدراية الواسعة بالورق و أنواعه : خصائصه و تاريخه .

٣- إلمام و معرفة بأنواع المداد (الحبر) المستخدم في كتابة المخطوطات أو في عملية الإستنتاخ..
٤- معرفة لا بأس بها في مجال الخطوط و الأقلام: تارخيه، فنونه، مدارسه .

ب- الشروط العلمية :

و هي ضرورية أيضا ،إذ لا تكفي الشروط التقنية وحدها، لسبر أغوار المخطوط، ذلك لأن المخطوط يختزن بين طيّاته، مادة علمية و ثقافية هي الأصل في وجود المخطوط ذاته .
١- و تدخل ضمنها النقطة الأخيرة من الشروط التقنية لأنهاوسيطة بين المجال المادي للوثيقة و المجال العلمي، الفني ..
٢- الإحاطة بتاريخ و لغة الحضارة الإسلامية، بعصورها المختلفة ، و هو ما عبّر عنه المستشرق الألماني "برجيستراسر" بالفهم المبني على شرطين، وهما: معرفة المادة التي يبحث فيها الكتاب، ثم معرفة اللّغةوالأسلوب.أما عن الشرط الأول –يقول برجرستراسر-أن قانون ابن سينا مثلا لا يمكن أن يفهمه إلا من فهم علم الطب و تاريخه بتعمق .[٨] أما الشرط الثاني، فلا ضرورة لذكره، لأنه يعتبر عماد نقد النصوص و تحقيها، و هو الإحاطة الكاملة باللغة و الأسلوب..
٣- الإلمام بالتاريخ الثقافي و العلمي للجزائر و الأقطار المجاورة لها منذ بداية دخول الحرف العربي (هذا الأمر ينطبق على المخطوط العربي أما إذاكان أجنبيا : إسبانيا أو فرنسيا فذلك شأن آخر).
٤- التعرّف على العلوم و الفنون الإسلامية :مجالاتها ، حدودها وتصانيفها، أي الإلمام الواسع بالنشاط العقلي و الديني بصفة عامة واهتمامات علماء و مثقفي المنطقة بصفة خاصة ...
غير أنه لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه الصعوبات،ليست حالة خاصة تتميّز بها مخطوطات المغرب العربي أو الجزائر، بل هي حالة عامة يشترك فيها جميع المهتمين بعالم المخطوطات في البلاد العربية. و السبب الرئيسي وراء ذلك، يكمن في طرائق الكتابة والبحث عند المؤلفين و الكتاب العرب منذ بداية عصر التدوين خلال القرن الثاني الهجري، و إلى غاية بداية القرن العشرين، بل و هي مستمرة لحد الآن في بعض المناطق العربية.
و تتلخص هذه الصعوبات، في عملية الكتابة (أوالتدوين)فيما يلي:
– إن الكتّاب العرب كانوا يراجعون ما ألفوا و يزيدون فيه و ينقحون، و هوالأمر الذي يزيد في تعدّد النسخ و اختلافها، ليس من حيث النسخ فحسب، بل من حيث ما تتضمنه كتبهم من معاومات .

[٨] – برجرستراسر، أصول نقد النصوص و نشر الكتب.إعداع و تقديم محمد حمدي البكري.الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٢،ص.٥١.

– أمـا الصـعوبة الثانيـة، فمكمنهـا أن بعـض المـؤلفين كـانوا يملـون كتـبهم عـدة مرات،فيتعرض النص للزيادة و النقصان، وخاصة في أثناء تنقّلاتهم إلى مراكز العلم في مشرق العالم العربي أو غربه.
ضف إلى ذلك ما ينتج عن مجلس الإملاء من آلاف النسخ التي تختلف عن بعضها، أقلاما أو تباينا في الجودة و التحكّم في اللّغة و الأسلوب. ومع أن البعض من المؤلفين العرب كانوا يكتبون أعمالهم بأنفسهم،مثلما هو شأن أبي حيان التةحيدي أو ياقوت الحموي، إلا أن نقولات كتبهم، قد تتعرض للخطإ أو الزيادة أوالنقصان..
إن من أهم الصعوبات المادية (المخطوط من حيث كونه مادة) و العلمية و الثقافية، في عملية الفرز و الترتيب و التصنيف التي قام بها مسيّرو مكتبات الزاوايا في هذا الشأن، تكمن في أن عددا ليس باليسير من المخطوطات مفقودة الصفحة الأولى أو الصفحتين الأوليتين، و اللتين من المفترض إن نجد بهما إسم صاحب المخطوط و عنوانه .
و ليس هذا الأمر وحسب، بل إن صعوبات أخرى في هذا المجال بالذات، تستدعي القيام بعملية مسح شامل للفهارس الموضوعة في المكتبات العامة و الخاصة، مثل تلك التي ذكرت سابقا، للتغلب على هذه المعضلة .. و إجمالا يمكن حصر هذه الصعوبات فيما يلي :
- النقص في صفحات بعض الكراريس (أو الملزمات) سواء مع بداية النص أو وسطه أو آخره أو الثلاثة معا .و بذلك لا يمكن في بعض الحالات التعرف على عنوان أو ناسخ أو تاريخ النسخة ،مع العلم أن مادته و موضوعاته تومىء بأننا أمام مخطوط مهم، علميا و ثقافيا ...
- الاضطراب في الأوراق وهو الأمر الذي يشكّل هاجسا كبيرا لدى مسيري خزائن المخطوطات و خاصة إذا ما علمنا بأن المخطوط لا يعتمد الترقيم المتعارف عليه (Pagination) بل على تقنية خاصة بالمخطوط الإسلامي وحده ...
- الصعوبة في إدراج بعض الكراريس التي لا يُعرف مكانها الصحيح، ذلك لأننا يمكن أن نجد بالمخطوط الواحد (أو المجلدة الواحدة) مخطوطات عديدة و لأسماء متعددة ...
و صعوبات أخرى من هذا القبيل لا يمكن التغلب عليها، لو لم يتسلّح المهتمون بماجاء في الشروط التي يتوجب أن يلّم بها المشتغل بهذا العلم الفذّ ،و هذا العالم الواسع و هي الدراية الواسعة بالخطوط و الورق و الفنون من تاريخ وسيرة و فقه وما إلى ذلك ..
لا تنحصر مشاكل المخطوطات في الجوانب المذكورة آنفا فقط، بل في مسألة التعامل مع في نسخها ، حيث يجد الباحثون و المحققون المبتدئون مشاكل جمة، سواء عند الإطلاع أو التحقيق. و غالبا ما يُطرح السؤال عندهم بهذا الشكل: أيّ الطُرق أنجع في عملية التحقيق ؟
أولا: - هل تقتصر العملية على دراسة النُسخ المتعددة للكتاب واختيار أصل من الأصول ونشره مع بيان الاختلاف بيته و بين النُسخ الأخرى للكتاب ؟

ثانيا: عدم الإقتصار على المقابلة،بل تخريج النصوص التي أخذها امؤلف عن غيره؟
ثالثا: الإدلاء بالرأب أيضا فيما يُنشر، و يتدخلعند الضرورة للتصحيح و التعليق والتعريف؟ و كيف تُذكر هذه التصحيحات و التعليقات ؟

ولذلك،فالضروة تحتّم الآن، وخاصة فيما نحن فيه من نشر للتراث العربي الإسلامي،في المغرب العربي أو مشرقه، التعامل مع هذه المسألة بجدّية، وذلك بوضع قواعد و أسس علمية، تكون بمثابة البيان المشترك لجميع الباحثين العرب . ويمكن أن تُستلهم صرامته من القواعد الفيلولوجية الأوروبية(نقد النصوص)التي أفرزها القرن التاسع عشرة الأوروبي و بداية القرن العشرين، و ما توصل إليه علماؤها من أمثال "برجرستراسر Bergstraesser و ب.كولومب P.Collomp،أو بلاشير و سوفاجي: R.Blachère , J.Sauvaget " و غيرهم ..[٩]

المخطوطات بالجنوب الجزائرى: الزوايا(الطرق الصوفية و مدارسها) نموذجا.

لا شك أن علاقة الجزائري بالمخطوطات- شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين الذين تعرّضوا إلى محن التشريد و الاحتلال - علاقة تاريخية و عاطفية أيضا . لذلك إعتمد بعضهم للحفاظ عليها طريق مواراتها عن الأعين، سواء في مكتباتهم الخاصة " العائلية " أوالتابعة للزوايا..

و قد كان هذا الأمر على "سلبيته " سببا جوهريا في استمرار تواجد البعض من هذه المخطوطات إلى حد اليوم ...

و يمكن رصد هذه الأماكن -البعيدة عن الغارات و التهريب المنظّم- في كل المناطق الداخلية من الجزائر مثل تمنطيط،والأغواط و أدرار و بني عباس و ورقلة و الهامل ببوسعادة ،إذ لم يستطع الإستعمار الفرنسي مثلا من بسط نفوذه على كل التراب الجزائري أو معظمه إلا مع نهاية القرن العرين ومشارف القرن العشرين .

و لعلّ هذا الانتشار و الدّور التاريخي الذي لعبته الطرق الصوفية في الجزائر،ومنها الطريقة الرّحمانية في المنطقة الشرقية للجزائر و جزء مهم من تونس، من التفسيرات التي يمكن أن تميط اللّثام عن مسألة الإهتمام الكبير الّذي أولاه مشايخ الزاوية الرّحمانية- مثل الشيخ "علي بن عمر" ومحمد بن أبي القاسم الهاملي- وذويهم بتجميع المخطوطات واقتنائها. ذلك أن علاقة زاوية " علي بن عمر' بطولقة مثلا ، لم تنقطع عن الزوايا الرّحمانية الأخرى، التي عُدّت في نظر العديد من الباحثين بمثابة الأصل ، و بقية الزوايا المحيطة بها فروع.

---

[9]- قدّم الأول: أصول نقد النصوص و نشر الكتب سنة ١٩٣١، و نشر الثاني : Les critiques des textes في نفس السنة، بينما ألّف الإثنان المتبقيان في سنة ١٩٤٥:. Règles pour édition et traduction des textes Arabes .

أن منطقة بسكرة عامة، وطولقة خاصة، لم تكن بعدُ، قد عرفت ما يمكن أن تأتي به جحافل الجيش الإستعماري من تدمير و ويلات؛ إذ لم يستطع الإستعمار(الإستدمار)الفرنسي من الولوج إلى المنطقة إلاّ مع حلول سنة ١٨٤٣م.

ثمّ إنّ هذه المنطقة و الجنوب الجزائري عامة، كان ملاذ العديد من العلماء و الفقهاء و بعض مخطوطات مكتباتهم ،النازحين من الشمال الذي لحقه الأذى من طرف جيوش الإحتلال، كما كان شأن علماء ومكتبات مدينة قسنطينة، على سبيل المثال..

- الطريقة الرّحمانية- العزوزية في الجنوب الشرقي الجزائري وتونس؟

إن أهم ما يثير الإهتمام في موضوع الطرق الصوفية عامة في الجزائر و الطريقة الرّحمانية خاصة [١٠] أنّها كانت محلّ اهتمام منقطع النظير من طرف سلطات الاحتلال الفرنسية مع أواخر القرن التاسع عشرة و بداية القرن العشرين، حيث انكب العديد من الدارسين و المستشرقين الفرنسيين من أمثال "أ.كور A.COUR" [١١] و "رينه باصي R.BASSET " ؛ فقد قام الأول و هو "كور" ، الذي كان يشغل كرسي اللغة العربية

---

[10]- لقد نشر "أ.كور" مقالاته في المجلة الإفريقية التي كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية.في عدد ٦٢ الخاص بسنة١٩٢١ .ص.ص:٨٥-١٣٩و ص.ص:٢٩١-٣٣٤

-REVUE AFRICAINE N° 61 ,1921(ALGER :OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES).

[11]- من المرجّح حسب الدراسة الميدانية و شجرة المتصوّفة الرحمانيينّ اللّتين أنجزهما المستشرق الفرنسي" أ.كور" في سنة ١٩١٤ ، أنّ الشيخ محمد بن عبد الرّحمان الأزهري، المعروف بـ" بوقبرين" هو من أسّس الزاوية الرّحمانية سنوات قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر. وقد عيّن الشيخ محمد بن عبد الرّحمان مُقدمَين (خليفتين) له في أثناء حياته، واحد في قسنطينة ومنطقة الشرق و الجنوب و جزء من تونس هو محمد بن عبد الرّحمان باش ترزي، وآخر في كل المناطق الجزائرية الأخرى هو الشيخ بلقاسم بن محمد المعاتقي .راجع ذلك أيضا عند:

A.Cour « recherches sur l’état des confréries religieuses musulmanes dans les communes de Oum-elbouaghui,Ain-elbeida…en novembre1914. »in Revue Africaine n°62,1921.Alger :OPU

[12]- " المخطوطات العربية في زاوية الهامل ": رينه باصي. مجلة الجمعية الآسيوية الإيطالية، مجلد ١٠ ، ١٨٩٦-١٨٩٧,٢

[13]- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: أبو القاسم سعد الله .ج١.ط.٣، بيروت:دار الغرب الإسلامي،١٩٩٠،ص١٧٨.

- انظر أيضا:الزوايا في الجزائر:عرض وتحليل للأستاذ الإمام الشيخ عبد القادر عثماني.الجزائر:دار الهدى.١٩٩٨.(وفي هذا العمل راح الشيخ عثماني شيخ زاوية علي بن عمر بطولقة يفرّق بين الزوايا الحقيقية والزوايا المزيّفة، مستدلا في ذلك على ما شاهده وسمعه عن الزوايا عموما).

بقسنطينة (CHAIRE PUBLIQUE D'ARABE) بإنجاز أهم دراسة عن الطريقة الرّحمانية بالشرق و الجنوب الشرقي الجزائري. ، بينما اهتم الثاني أي "رينه باصي " بالمخطوطات عامة [١٢] و بمخطوطات الزاوية الرّحمانية بالهامل في بوسعادة خاصة.
لقد اهتّم الدارسون والمستشرقون الفرنسيون سواء أولئك الذين صاحبوا الحملات العسكرية على المدن والقرى الجزائرية، أو أولئك الذين اهتموا بمحض إرادتهم و فضولهم العلمي ، بالطرق الصوفية عامة و بالطريقة الرّحمانية على وجه الخصوص فحاولوا اقتفاء آثارها ، ودراسة اتجاهاتها، فشجعوا بعضها و حاولوا محاربة البعض الآخر. وممّا وصلنا منهم على سبيل المثال ، ما كتبه " أ.كور- Cour" الذي يصف المنطقة الشرقية والجنوب الشرقي من الجزائر مع بداية القرن العشرين فيما يخصّ علاقة الإدارة الاستعمارية بالصوفيين،يصفها بالجيدةّ ناقدا ما قام به الأتراك من تشريد للعلماء ومن الحكم المتسلّط للعثمانيين. وهو ما أدّى في نظره إلى هروب العلماء وأقطاب الصّوفية خارج مناطق نفوذ حكم الأتراك. وإن كان ذلك صحيحا نوعا ما، حيث عُرف عن تلك الحقبة من تاريخ الجزائر بقلّة التأليف وعدم الإهتمام بالعلماء والمثقفين ممّا ترتّب عنه هجرة الرّاغبين منهم في طلب العلم،فأدّى الوضع العام إلى انتشار البدع وشيوع حلقات الذكر و الأوراد وتعدد طرق الصوفية وتطرّفها في عقائدها وقد كان بعضها يعمل بتشجيع واضح من الحكّام العثمانيين[١٣].

وعلى الرّغم من أنّ ما كتبه "أ.كور" صحيح إلى حدّ ما، فإنّه ينعت بداية الفترة الإستعمارية بالمرحلة التي تمكّن خلالها بعض العلماء وأقطاب الصّوفية،من العيش في سلام،حيث "قام الصوفيون وأصحاب الزوايا بربط علاقات الود والتسامح مع الفرنسيين..." [١٤].إذن ففي المرحلة السّابقة على دخول الفرنسيين إلى الجزائر بعدّة عقود نزح بعض العلماء والفقهاء نحو الجنوب هاربين من تسلّط العثمانيين حيث أسّسوا زوايا تعليمية وصوفية في مناطق عديدة من الجنوب الشرقي مثل الخنقة(بسيدي ناجي)، منعة،، الرويسات، طولقة، تماسين، وكانت معظمها تتبع الطريقة الرّحمانية.

ولم يكتف هؤلاء العلماء و المتصوفة بفتح تلك الزوايا في الجنوب الشرقي، بل راحوا، ولأسبالب تاريخية متعلقة بالحملات العسكرية الإستعمارية على الجنوب الشرقي خاصة والجنوب الجزائري عامة مع بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشرة، يؤسّسون زوايا أخرى إشتهرت بالعلم والتصوّف في كلّ من الكاف ونفطة التونسيتين..

ولقد اشتهر في غضون ذلك علماء وفقهاء عديدون،قاموا برحلات دينية علمية عُرفت إبّان العهد العثماني بالرحلات الحجازية،قام أصحابها بتأليف ما جادت قريحتهم و منها على سبيل المثال لا الحصر:

- رحلة البوني (أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني).١٠٦٣-١١٣٩هـ وقد سمّى رحلته الروضة الشهية في الرّحلة الحجازية.
- رحلة بن حمادوش (عبد الرازق بن الحمادوش الجزائري ١١٠٧هـ، توفي وعمره ٩٠ سنة، رحلته: لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب والآل.

رحلة الورتلاني،١١٢٥-١١٩٣هـ. ورحلات أخرى لا يتّسع المقام هنا لذكرها كلّها.

وإن دلّ ما سبق على شيء،فإنّما يدّل على أنّ الحركة الثقافية والعلمية في الفترة السّابقة على إحتلال الفرنسيين للجزائر إنّما كانت فترة كتابة وتأليف علميين،هذا من جهة أمّا من جهة أخرى فإنّ ما ذكر من تلك الرّحلات كان الزاد العلمي لشيوخ ومريدي الزوايا في تلك المنطقة ومناطق أخرى،ولا عجب في ذلك، حيث لا تزال هذه الأعمال في شكلها المخطوط في معظم مكتبات الزوايا المذكورة.

- <u>زاوية « الهامل » ببوسعادة:</u>

اشتهرت هذه القرية الصغيرة و ذاع صيتها مع تأسيس " مقام الهامل "الديني، الصوفي "خلال القرن السادس الهجري، حوالي القرن الثالث عشرالميلادي، على يد " سيدي عبد الرحمن بن أيوب، وعمه سيدي أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الله بن سيدي بوزيد دفين جبل راشد قرب أفلو بالأغواط، وكان الغرض من تأسيس هذا المقام هو نشر تعاليم الدين الإسلامي وسط أهالي المنطقة.

أما تأسيس الزواية التعليمية، فكان على يد الشيخ محمد بن بلقاسم، سليل سيدي بوزيد خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

[14] --A.Cour,Op.cit.P. 86 .-

يقول عنه الشيخ الحفناوي صاحب كتاب" تعريف الخلف برجال السلف "، الذي يُعتبر هو ذاته أحد تلامذة زاويته، وابن المنطقة "هو مالكي المذهب، أشعري الإعتقاد، رحماني الطريقة، هاملي المسكن، جزائري الإقليم ..." [١٥] بدايته بالتدريس و الاهتمام " بعلميّ الشريعة و الحقيقة " كانت في سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٤م و كان " يحضر درسه في الفقه نحو ثمانين تلميذا أو أكثر " من مختلف مناطق الجزائر، و كان الوحيد ضمن مشايخ الزوايا، الذي أشرك شيوخا آخرين في تدريس علوم الفقه، و الحديث و ما إلى ذلك من علوم تقليدية. و ابتكر طريقة في التدريس عرفت ب"الطبقات "، حيث يتشكّل التلامذة من طبقات، كل طبقة تعلّم ما دونها من طبقات في العلم .

اشتهر من بينهم العديد من العلماء و الفقهاء، الذين لم يُعرَفوا في المنطقة التي نشأوا فيها وحسب، بل ذاع صيتهم في بلدان أخرى مثل مصر و تركيا، كما كان شأن العالم الشيخ المكي بن عزوز، الذي تلّقى تكوينه العلمي في زاوية الهامل على يد الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي،و لكن عندما اشتد عوده رفض التعامل مع الفرنسيين، فهاجر إلى تونس فالقاهرة، ومن ثمة إلى القسطنطينية حيث أصبح مفتي السلطان عبد الحميد، وظلّ العديد من المؤرخين والدّارسين يعتبرونه تونسيا، ولقّبوه بأستاذ إفريقيا ومُسندها.. [١٦]

والشيخ محمد بن عبد الرحمن الدّيسي، والشيخ محمد المازاري الدّيسي الفقيه العروف، والشيخ أبو القاسم الدّيسي المعروف بابن عروسة و الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي صاحب " تعريف الخلف ".

مع اتساع عدد الوافدين إلى الزاوية، من طلبة و شيوخ، اتسعت رقعة الإهتمام بالكتاب المخطوط فتكوّنت مع مرور الأيام مكتبة مرجعية، من الجزائر و تونس و المغرب و المشرق العربي عموما ...

و من محاسن الصّدف، أن تكون كنوز هذه المكتبة لا تتضمن المخطوطات و المطبوعات النادرة و حسب، بل تتضمن أيضا وثائق تاريخية : سياسية و إدارية باللّغتين، العربية و الفرنسية، تعود بعضها إلى عصور مضت، يعي المسؤولون عنها، بأهميتها الثقافية و العلمية و السياسية و بما يُمكن أن تكشف عنه من حقائق حول تاريخ المنطقة الثقافي و السياسي ...

و يمكن في هذا الصدد حصر هذه الوثائق في الإتجاهات التالية :

- مراسلات مع الأمير عبد القادر من دمشق .

---

[15]- الحفناوي،(أبو القاسم محمد) تعريف الخلف برجال السلف . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية . ١٩٩١ ج ٢ ص ١٧١

[16]- فهرس الفهارس و الأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات و المسلسلات :عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتّاني ،.تحقيق إحسان عباس، ج١،بيروت:دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢، ص١٢.

- رسائل الشيخ المكّي بن عزوز (الجزائري الأصل)مفتي الأستانة بتركيا، ومجموعة من الوثائق الأخرى تصل إلى حدود ستين وثيقة، هي عبارة عن رسائل من آل أب] داوود و زاويتها " بأقبو " بمنطقة زواوة بالقبائل، وعدد مماثل منهذه الوثائق من زوايا الرحمانية الأخرى في القطر الجزائري .
- رسائل من القيادة و السلطات و الشخصيات الفرنسية، وهي في أغلبها إدارية.
- رسائل تقارب المائة من تركيا – تونس – الحجاز و الجزائر و هي في أغلبها إخوانية .
- ثم تأتي الرسائل ذات الطابع الرسمي، و الخاصة بالإجازات و الفتاوي و ما إلى ذلك.. و لم يجد مشايخ الزواية مكانا تُحفظ فيه هذه الوثائق، أفضل من المخطوطات المجلدة ذاتها : إذ من خلال هذا العمل – ربما غير المقصود – تمكّنت من مقارعة صروف الدّهور و الضياع و السرقة ،و لولا ذلك لتفرّقت بين الأيدي و اختفت إلى الأبد ..

إن ما يسترعي انتباه من تقع عيناه على مخطوطات هذه الزواية المقدرة بحوالي ألف و خمسمائة [١٧] هوأنها تتّسم في مجملها بحالة جيّدة، على الرّغم من قدم بعضها، الذي يصل تاريخ نسخها إلى خمسة قرون، كما هو الشأن بالنسبة إلى أحد المصاحف، الكبير الحجم، المُتقن النّسخ بخط مغربي و المزين بزخرفة زاهية الألوان ..أما الورق فهو من النوع الصقيل، الراقي، الذي لا يستخدمه إلا من كان ميسور الحال.و في ذلك إشارة واضحة لما استطاع مشايخ الزواية أن يبذلوه من مجهود معتبر لاقتناء بعض مخطوطاتهم ..

بل إن المجهود في عملية الإقتناء و النّسخ و تجشّم الصّعاب من أجل ذلك، لمثير الدهشة و الإعجاب حقا ،وخاصة عند ما ندرك أن الوضع المادي للمشرفين علي الزاوية من مشايخ و مريدين ،متوسط الحال، وما تتميّز به المنطقة من تضاريس ومناخ لا يساهم كثيرا في جلب المساهمات و الإعانات .

لقد تخصّصت زاوية الهامل على ما يبدو دون الزوايا الأخرى، في ابتكار تقنية فريدة من نوعها، للحفاظ على المخطوطات من التلف، بصنع عُلب جلدية للحفاظ على المجلدات ذاتها: مصنوعة من أجود الجلود وبحجم المجلد أو أكثر؛ وكان يقوم بتصنيعها مجموعة من الحرفيين المهرة - بالإضافة إلى تجليد المخطوطات ذاتها - ينتسبون إلى عرش من عروش المنطقة، ذائع الصيت في هذه الحرفة هو عرش "السوامع" .غير أن ما حصل من تطور في عالم المطبوعات حال دون إنتشار حرفة التجليد و التعليب هذه ،والتي لا تزال تدر على أصحابها في المشرق العربي خيرا كثيرا ؛ فاتجهوا إلى صناعة

---

[17]- يرجع تاريخ أقدم مخطوط بزاوية الهامل إلى القرن التاسع الهجري ، و بالضبط إلى ٨١٣ه ،لصاحبه ابن هشام الأنصاري ،و هو معنون كالتالي : المغني اللبيب عن كتب الأعاريب.
و قد يكون مما هو موجود من مخطوطات ما هو أقدم تاريخا مما ذكر .ذلك لأن عددا هائلا منها لا يزال قيد الحصر و ربما " الاكتشاف " .

أخرى لا تخرج عن مادة الجلود،هي صناعة السروج وما إلى ذلك من أصناف تدخل في عالم الخيل .

- خزانة كتب ومخطوطات زواية "على بن عمر بطولقة (بسكرة):

عُرف عن الشيخ علي بن عمر ولعه باقتناء الكتب و المخطوطات، سواء بالشراء خلال رحلتيه إلى الحجاز(يُعتقد أنهما رحلتان،واحدة مع شيخه الأزهري،و أخرى مع أستاذه و شيخه الآخر محمد بن عزوز) أو بالإستنساخ.

ولم يختلف عنه أحفاده في ذلك، حيث عُرف عن الشيخ علي بن عثمان أيضا حبه للعلم وللكتب، الأمر الّذي دفعه إلى المساهمة في عملية تأسيس مكتبة مرجعية، يؤمها تلاميذ و طلاّب الزاوية التعليمية من مختلف النواحي.

إذن،فإنّ أبرز ما عُرف به شيوخ الزاوية الرّحمانية-العثمانية بطولقة،منذ نشأة الزاوية (و المكتبة أيضا) هو بالإضافة إلى ورعهم و علمهم، حبهم الشديد للكتب، فجمعوها من مختلف المظان و اشتروها بأثمان غالية؛ غيرأنّ الفضل في توسعة المكتبة و زيادة أعدادها(مخطوطات أومطبوعات) يرجع إلىالشيخ الحاج بن علي بن عثمان، والد شيخ الزاوية الحالي .ولقد كانت عملية تجميع مخطوطات المكتبة خلال الفترات الأولى للإحتلال الفرنسي للجزائرفي الثلاثينيات من القرن١٩،ولمنطقة بسكرة في الأربعينيات منه تتمّ،بالإضافة إلى الشراء والإستنساخ، بالتبادل والهدايا.وربما يَظهر ذلك من خلال استقبال المكتبة وشرائها لعدد لابأس به من المخطوطات الوافدة إليها،ممّا تمّ تهريبه من المكتبات الخاصة التي تعرّضت للسّطو والسّرقة، مثلما هو الأمر بالنسبة لمكتبات قسنطينة الخاصة،والتي لاحظ أبو القاسم سعد الله،وجود بعض مخطوطاتها بخزانة طولقة.و خاصة تلك المنسوبة إلى مكتبة الشيخ الفكّون القسنطيني.

لقد أحصى البارون " دي سلان" ،و هو مستعرب فرنسي مشهور في أثناء مهمته إلى قسنطينة للبحث عن المخطوطات النادرة، المئات من المجلدات، في مكتبات العديد من العلماء والأعيان،مثل مكتبة " سيدي حمّودة، من عائلة الفكّون، التي يفوق عدد مجلداتها الألفين و خمسمائة(٢٥٠٠)،وكان معظمها مرتبطا بالفقه وأصوله. ثمّ مكتبة الباشترزي، التي يبلغ عددها خمسمائة مجلد.." [١٨]

و تكاد مخطوطات هذه المكتبة تتبع طبيعة ما يُدرّس في الزاوية من علوم ومعارف،حيث تتنوّع بين التصوّف والتوحيد والتفسير و العلوم الدينية عموما، كما تشما الأدب و التراجم والتاريخ العام و المحلي،وما كتبه شيوخ الزاوية و علماؤها على مرّ العصور،و يتجلى ذلك في مخطوطات الشيخ عبد الرحمن بن الحاج بن علي بن عثمان، مثل " الدر المكنوز في حياة سيدي علي بن اعمر و سيدي بن عزوز"و هي رسالة تمّ طبعها بقسنطينة عن مطبعة النّجاح بقسنطينة ..

كما تشمل مكتبة "العائلة " العثمانية بطولقة،مجموعة من الوثائق و المراسلات الخاصة،تنم على حركية تميّزت بها الزاوية وأهلها، وكان الأساس فيها، الظروف السياسية والفكرية التي مرّت بها.وكان لزاما و الحال هذه، أن تتم مراسلات بين شيوخ الزاوية و العلماء في تونس،بفعل الإرتباط الوثيق، الذي يحكم العلاقة بين الطريقة الرّحمانية في كل من طولقة و البرج (برج بن عزوز) و المدن الجزائرية الأخرى و وبين المدن التونسية كنفطة والقيروان و غيرهما. و قد تراسل شيوخ الزاوية طبعا مع السلطات الإستعمارية، و شيوخ التصوّف والعلم في المشرق و الصّحراء..

ومن نماذج هذه الوثائق و المراسلات، يمكن ذكر ما كتبه الشيخ علي بن عثمان إلى الشيخ محمد الأخضر بن على الخياري،و الشيخ علي بن الصادق البقلي ، و عبد الرّحمن بن الحفصي الحناشي، ومراسلات من الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز إلى شيخ الزاوية بطولقة.. ويبدو أنّ بخزانة الزاوية مراسلات أخرى ذات أهمية تاريخية وعلمية(في التّصوف و في الفقه وفي غيرهما)لا يريد المشرفون على الزاوية الإعلان عنها، لسبب أو لآخر..

تحتوي القاعة،وهي مخزن أوخزانة في نفس الوقت، على مجموعة من الخزانات الخشبية (Rayonnages)، يبلغ عددها سبعة عشر (١٧)، تضم مايفوق الخمسة آلاف كتاب،بين مطبوع ومخطوط، تُسندها جدران القاعة ،وقد قيل لنا أنّ عدد المجلدات الخاصة بالمخطوطات وحدها ينيف عن الألف و خمسمائة مخطوطا.و إذا علمنا بأن المجلد الواحد من هذه المخطوطات، قد يكون بداخله مجاميع و رسائل منفصلة الموضوع والحقل الذي تبحث فيه،فإن عدد المخطوطات قد يزيد عن الرّقم المُقدّم..أما وسط القاعة، فقد وُضعت فيه طاولات عرضها حوالي متر و نصف المتر(١,٥م) ،وطولها حوالي ستة أمتار،أي ذات مساحة قد تبلغ تسعة أمتار مربّعة،خصّصها

[18] -Francis LALOE , op.cit.p.106.

المُشرف على المكتبة لوضع عدد لابأس به من الكتب المخطوطة،وهي في انتظار أن تُفهرس، وقد أشرنا آنفا، بأن عملية الترتيب والتصنيف جارية، على قدم وساق. و أجل ذلك، يتابع الشيخ سعد عثماني، بين الفينة و الأخرى،تربُصات قصيرة المدى في المكتبة الوطنية للتّعرف على تقنيات الفهرسة و الكشيف..

ومن أجل الحفاظ على مخطوطات المكتبة،عمدت إدارة الزاوية ممثلةً في الشيخ عبد القادر،على جلب أجهزة لتعديل الرطوبة في أقرب وقت ممكن، حيث تكون الدرجة المُثلى للحفاظ الجيّد على المخطوطات،بين درجة الحرارة °14-16° والرطوبة بين 40°- 60° درجة..[19] هذا عن الآفات الطبيعية، أما فيما يخص مسألة الحفاظ على المخطوط من الحشرات كالأرضة و الأمراض التي تصيب الورق والجلد و ماشابه، فإنّ المشرفين على المكتبة، لايقومون يأي تبخير يُذكر،والذّي من شأنه المساهمة في الإبقاء على الحالة الجيدة و المقبولة للمخطوط، وربما يرجع عدم الإهتمام بذلك إلى الحالة الجيدة للمخطوطات الموجودة بالمكتبة.غير أن ما يلاحظ في هذه المكتبة، و الذي يُمكن أن يُعرّض الكتب المخطوطة إلى الأمراض و الحشرات،هو وجود "الموكيت" على الأرضية، وقد تنبّه إلىذلك الشيخ سعد..

تتبع المكتبة في تصنيف و ترتيب مقتنياتها من المخطوطات على النظام المُتّبع في المكتبة الوطنية، وهو ذو سبعة حقول تبدأ بالعنوان ،المؤلف، نسبه، شهرته، وفاته بالهجري والميلادي، إلى غير ذلك من الحقول، كنوع الخط و الورق والمداد، و الشكل(الزخرفة) والناسخ ..

- نماذج من المخطوطات الموجودة بالمكتبة:

الواقع أنّ محاولة التعرف على ما تحويه مكتبة العائلةمن مخطوطات،لايتطلب الجهد الفكري و العضلي فحسب، بل يتطلب الخلوة التامة لمدة من الزمن غير قصيرة. ومن هذه المخطوطات نماذج مختارة، لا تتبع عملية الاختيار أي معيار:

١- **روضة الأنوار و نزهة الأخيار، للشيخ عبد الرّحمن الثعالبي.** و قد انتهى منه صاحبه فب ١٥ جمادي الأولى سنة٨٣٦هـ، ونسخه مصطفى بن العربي، منسوخ بخ مغربي، تاريخ النّسخ غير مذكور، و يقع الكتاب في ثلاثة مجلدات.

٢- **تتمة يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري.** من القرن الرّابع الهجري،بخط مؤلفه،عدد صفحاته : ١٥٠ صفحة، مكتوب بخط مغربي – نسخي واضح. نوع الورق خشن . بدون آفات أو فليل التّعرّض إلى آفة الأرضة.

٣- **أمالي القظاعي في الحديث، للقظاعي، المتوفى سنة ٥٤٠٤ه.**مكتوب على جلد الغزال، من القطع الصغيرة، ويضم حوالي ٤٠ صفحة، منها صفحات فارغة.مكتوب بخط مغربي جميل.

[19] –Jacquette REBOUL , du bon usage des bibligraphies .p.152

٤- **إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين، للشيخ عبد الوهاب الشعراني** هو من مصر لكنّه تلمساني الأصل، كتبه بخط يده سنة ٩٣٣هـ، ويضم من الصفحات ٤٧ من القطع الكبير.

٥- **المنهج المسلوك في سياسة الملوك، لصاحبه الشيخ عبد الرحمن بن نصر** المتوفى سنة ٥٨٩هـ.

٦- **هداية الحيارى في أمور اليهود والنّصارى، للشيخ شمس الدين أبي عبد الله** المتوفى سنة١٠٣٨هـ.

في الواقع إن هذا إلا غيض من فيض فقط، ولا يمكن أن تمثّل هذه النماذج- العينة كل ما تحتويه مكتبة طولقة من مخطوطات نادرة، سواء من حيث الموضوعات التي تطرقها، أومن حيث قدم كتابتها أونسخها.لذلك فإن العدد الهائل، الذي تحتويه هذه المكتبة، يجعلها تتبوّأ مكانة مرموقة بين مكتبات وخزائن المخطوطات في العالم العربي ..و اليوم الذي يتم فيه تصوير المخطوط رقميا، أي وضعه في شكل أقراص مدمجة، كما ينوي المُشرفون على هذه المكتبة. حينئذ، سوف يضربون عصفورين بحجر واحد، الأول هو الحفاظ على هذا التراث العلمي و الفكري- الحضاري للأجيال القادمة، ثمّ وضع هذه المادة العلمية الغزيرة بين أيديّ الباحثين وطلاب العلم، لعلّهم يميطون اللّثام عن أكبر الحركات الثقافية والعلمية،التي عرفتها البشرية لحدّ الآن..

- **<u>زوايا منطقة توات و الحركة الثقافية:</u>**

منطقة "توات" أو إقليم توات [٢٠] هو مجموعة من الواحات الصحراوية الواقعة بالجنوب الغربي للجزائر ، فهي أقرب من الحواضر الإفريقية منها إلى مدن و قرى الشمال، الأمر الذي هيّأها لأن تكون منطقة تماس بين عالمين يكادان يختلفان في أشياء كثيرة، ابتداء بالطبيعة و المناخ و انتهاء بالتقاليد و العادات و الثقافة ، التي تنحو نحو الطابع الإفريقي؛ لكنها ، و على الرّغم من كل ذلك ، فإنها ترتبط بالشمال برباط مقدس هو : الدين و اللّغة .

و تُطلق كلمة توات على ثلاث مناطق رئيسية هي: تيجرارين و تيدكايت و توات.[٢١]

---

[20]- تقع منطقة توات حسب في جنوب القطاع الوهراني و شمال الأهقار. كما تحدها من الشمال العرق الغربي وهضبة تادمايت ومن الجنوب هضبة مويدر .

[21]- - تضم تيجورارين قصور عديدة تتخللها واحات كثيرة، عاصمتها : تيميمون.أما تيدكلت فتقع في أقصى الشرق من الواحات التواتية و جنوب هضبة تادمست، و شمال هضبة مويدر و تمتد إلى الغرب على مسافة ١٥٠كلم.

أما فيما يخص توات التي أخذت إسم المنطقة بأكملها فهي التي تطلق على المجموعة الجنوبية الغربية التي تقع في حوض واد الساورة . أما عدد قصورها فتقارب ٣٠٠ قصرا في مناطق مختلفة تمتد على مسافة ٢٠٠ كلم.تضم عددا من المدن المعروفة مثل أدرار و تمنطيطو غيرهما.

و لقد عاشت هذه المنطقة بقصورها العديدة المترامية الأطراف في الواحات الجزائرية أزهى فترات حياتها الثقافية و العلمية خلال القرن التاسع و العاشر الهجري الموافقين للقرنين الخامس عشرة و السادس عشرة الميلادي.

و أصبحت هذه الحاضرة الإسلامية في تلك الفترة من التاريخ مركز إشعاع علمي و ثقافي ، لا ينير منطقة المغرب الأوسط فحسب ، بل شمل أيضا كامل الصحراء حتى التخوم الشمالية لبلاد السودان (النيجر و مالي الحاليين).و كانت من الأسباب المباشرة في انتشار الدين الإسلامي في كافة المناطق الإفريقية المجاورة. كما كانت الطريق الّذي من خلاله، عرفت المنطقة اكتساحا للطرق الصوفية ، مثل الطريقة القادرية و التيجانية و السنوسية و غيرها. وما يلفت الإنتباه في علاقة منطقة توات ببقية المناطق الإسلامية الأخرى هو تأثرها الشديد بمدينة تلمسان و علاقة مشايخها بعلمائها، مثلما هو شأن الشيخ المغيلي خلال القرن العاشر الهجري، و الشيخ بلكبير في القرن الرابع عشرة الهجري.

و لقد نبغ بالمنطقة عدد كبيرمن العلماء ، يذكرهم الشيخ محمد أبو القاسم الحفناوي في كتابه: تعريف الخلف برجال السلف.مثل الشيخ يحيى بن عثمان الكنتي،والشيخ عبد القاسم التواتي.غير أن أشهرهم في تلك الحقبة من التاريخ هوالشيخ محمد عبد الكريم المغيلي التواتي التلمساني،الذي يرجع بنسبه إلى منطقة مغيلة بتلمسان ، حيث ولد بها في حوالي سنة ٧٩٠هـ. وقد أسّس الزاوية القادرية بمنطقة توات في حوالي سنة ٨٨٥ هـ.[٢٢]

[22]- بدأ الشيخ أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني دراسته بتلمسان حيث حفظ القرن ، و أجاد بها فنون مختلفة على يد مشايخ كبار علمائها. و من تلمسان انتقل الشيخ المغيلي نحو بجاية حيث التقى بجهابذة الفكر و العلم هناك . و بالإضافة إلى شهرته العلمية ، عُرف الشيخ المغيلي أيضا بجهاده و حروبه ضد يهود المنطقة إذّاك .. راجع : محمد ابو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف.الجزائر: المؤسسة الوطنية الفنون المطبعية، ج١ . ١٩٩١. ص ١٩٦

- زوايا أدرار وتوات وحركة التأليف والنسخ:

لقد عرفت منطقة توات ، مثلها مثل المناطق الأخرى التي كانت تخضع للمغرب الأوسط خلال القرن الذي عرف تأسيسا للزوايا التعليمية و الصوفية ، حركة علمية وتعليمية مكثفة ،الأمر الذي أدى إلى توسّع عظيم في نسخ العديد من الكتب و المؤلفات، ساهم في خلق سوق رائجة للكتاب.

و كان القائمون على زوايا المنطقة من شيوخ و علماء ،يبذلون جهودا مضنية للحصول على الكتاب الجيد ، من المدن الجزائرية الأخرى مثل تلمسان و بجاية و غيرهما ؛ حيث يقومون بتكليف الناسخين من طلبة الزوايا أو من محترفي النسخ للقيام بعملية نقل و نسخ المؤلفات العلمية.

و مع مرور الأيام تمكّن مثقفو المنطقة من امتلاك عدد كبير جدا من المخطوطات، بعضه متواجد الآن في العديد من الخزائن ، الخاصة (العائلات) و العامة (الزوايا).

و لقد بلغ عدد المخطوطات بها خلال القرن السابع عشرة الميلادي أكثر من ٢٧٠٠٠ مخطوطا، موزعا على تسع و عشرين خزانة في كل من توات و قوارة و تيدكلت...لكن هذا العدد قد تقلّص الآن إلى حوالي ١٢٠٠٠ مخطوطا حسب تقديرات سنة٢٠٠٣ .

٣- أدوات البحث في المخطوطات:

تتشكّل أدوات البحث في المخطوطات، بالإضافة ما تمّ ذكره في ثنايا هذا البحث من معرفة تقنية وعلمية بعالم المخطوطات، من مجموعة من المصادر و المرجعيات الأساسية مثل فهارس المكتبات و الخزائن و البيبليوغرافيات وبرامج الشيوخ الذائعة الإنتشار في الثقافة العربيةعموما،والمغاربية عاى وجه الخصوص.

و لمعرفة دور هذه المصادر باعتبارها جزءا مهما من أدوات البحث الضرورة للباحث في مجال المخطوطات، تجميعا أو تحقيقا،، لا بدّ من الرجوع أولا،ليس إلى الأصل في تكوين هذه المصادر فحسب، بل بالرجوع أيضا إلى المنطلقات المنهجية و العلمية التي كانت وراء تكوينها..

إن بروز علم دراسة أحوال الكتب- وهو المصطلح الذي أعطاه حاجي خليفة- أو البيبليوغرافيا إذن ، كان النّتيجة المنطقية و الموضوعية لنشأة و تطور المعرفة عند المسامين ، منذ أن كانت أقوال حكَميةَ أو أخبارية أو شعرية عند عرب ما قبل الإسلام ، إلى أن استوت في ثوب العلوم و الفنون الإسلامية ، و توسّعت مع ما تمّ نقله و ترجمته من علوم الأمم و الشعوب القديمة .

وأوّل من نبغ في ذلك ،هو محمد بن اسحاق بن النّديم الورّاق(المتوفى بعد سنة ٣٧٧ه)،في مؤلّفه " الفهرست "الّذي جمع فيه ،خلافا لكتب التّراجم والطّبقات الّتي عرفت قبله أو بعده،بين التّصنيف الّذي يتطلب إدراكا للنّظريات المعرفية،و بين البيبليوغرافيا،الّتي هي في نظر حاجي خليفة"أهم العلوم وأولى مرحلة من مراحل البحث والتّنقيب،ومن لم يعلم ما أُلّف من الكتب في أيّ موضوع كان، يطول عليه أمد بحثه

بدون أن يحصل منه على طائل[٢٣] فأرّخ للنّشاط الثّقافي والعلمي السلامي للقرون الأربعة الهجرية الأولى..

ثمّ تبعته أعمال عديدة ، متّخذة من منهجه في تصنيف العلوم والمؤلفات و التّرجمة لأصحابها مثلما هو أمر كُتُب برامج العلماء أو فهارس الشيوخ،التي اشتهر بها علماء وكتّاب الأندلس والمغرب على وجه الخصوص، مثل ابن خير الإشبيلي (القرن السادس الهجري) وأبي العباس الغُبريني البجائي (القرن السابع الهجري).ثمّ أخذ كتّاب المعاجم التاريخية والتّراجم مثل ياقوت الحموي في" معجم الأدباء" والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ،و القفطي في "إنباه الرّواة "و غيرهم،في ترجماتهم للمؤلفين و العلماء و الأدباء ،بمنهج الكتابة عن الكتب وتصنيفات المؤلفين.لكنّهم ،على الرّغم من ذلك،لم يكونوا منطلقين من فلسفة تصنيفية مثلما كان الحال عند ابن النّديم وغيره من البيبليوغرافيين ولم يتّخذوا من"ذكر مؤلفات"الكتّب منهجا عاما لأعمالهم.

غير أنّ هذا التأريخ للنشاط الحضاري العام ،لم يمنع من ظهور أعمال بيو-بيبليوغرافية ، تتخذ من البعد المكاني أو الإقليمي منهجا لها ، كما هو الشأن عند الغبريني في "عنوان الدّراية"(القرن ٧هـ) أو عند العباس بن ابراهيم المراكشي في "الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام " القرن ٨هـ)أو عند الشّيخ أبي القاسم الحفناوي في "تعريف الخلف برجال السّلف "القرن١٣هـ)وغيرهم ممّن أخذوا على عاتقهم التّعريف بأعلام عصرهم و أقاليمهم من الكتّاب و العلماء ، بقصد مواصلة ما سنّه الأوائل في هذا المجال ،سواء أولئك الّذين صنّفوا في علم البيبليوغرافيا أو أولئك الّذين اتّخذوا من روح هذا المنهج من أجل الكتابة عن شيوخم وما قدّموه لهم من العلم، عرفانا لهم و ترحّما عليهم في فهارس الشيوخ ..

٤ - نماذج من أدوات البحث في المخطوطات الإسلامية في الجزائر:

أ - فهارس الشيوخ أو برامج العلماء:

واصل المسلمون تأليف ما بدأوه من فهارس أو أثبات (من ثَبَت) في إطار علم الحديث[٢٤]،حيت كان العالم يقوم بتسجيل رواياته في الحديث بالسّند (الإسناد) والكتب التي

---

[23]- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١، المقدمة، ص١.

[24]- تصنيف الحديث : وهي المرحلة التي تصادف مرحلة تصنيف العلم وتبويبه عندالمسلمين، والتي تكاد تتفق -عند جلّ القدامى من أمثال أبي طالب المكّي،والذّهبي - مع نهاية النّصف الأوّل من القرن الثاني الهجري،حيث باشر المسلمون،بإشراف الدولة،تدوين العلم(الحديث)و تبويبه .وقد طبعت هذه العملية الواسعة بطابعها حياةالمسلمين الفكرية والإجتماية، لفترة تزيد عن قرن من الزمان. و أهمّ ما نتج عن المراحل الثلاثة االمذكورة،هو إرساء قواعد الإسناد ونقد المتون؛ ويرجع الفضل في ذلك، إلى الطريقة المبتكرة،التي اتّخذها المسلمون الأوائل في تسديد سير الأخذ بالصّحيح من الأحاديث النّبوية الشّريفة .

[25] - شعبان عبد العزيز خليفة، البيليوغرافيا أو علم الكتاب، ص١٤٩.

قرأها،مثل صحيح البخاري وغيره من الكتب الستة المشهورة .كما يُسجّل شيوخه الّذين درس عليهم ولا سيما شيوخه في علم الحديث .

و لقد عرفت هذه الفهارس تطورا ملحوظا في المشرق كما في المغرب والأندلس منذ القرن الثالث الهجري إلى غاية القرن الماضي (القرن الرّابع عشر الهجري) و كان يُقصد بهذه الفهارس التي اتّخذت مصطلحات عديدة مثل : الأثبات،والبرامج،والمشيخات والمعاجم، والمسلسلات،و التقييدات والاسنادات، تلك القوائم الّتي كان بها العالم المسلم يحصُر و يسجّل و يصف الكُتُب التي درسها على شيوخه، سواء كانت بالقراءة أو السماع أو الإجازة و كانت هذه الفهارس (البرامج) تُتداول بين العلماء، وممّا يتفاخرون به فيما بينهم ...

غير أن شغف علماء الأندلس بذلك، كان أكبر ممّا كان عليه في المشرق،و شارك فيه المتقدمون منهم و المتأخرون في إنتاجه مشاركة قوية،وحيثما كان الإطّلاع في كتب التّراجم، وجدنا بين الحين والأخر قولهم "و له برنامج "أو " له فهرستة " .و يذهب شعبان خليفة الى القول بخصوص هذا النّوع من البيبليوغرافيات " أنّ الغرب لم يعرفه، ولذلك لا نجد له مصطلحا غربيا مقابلا له أمّا عن عددها ، فهي تقارب ثلاثة آلاف فهرست أو برنامج. [٢٥]

و تكمن أهمية هده الكتب من الناحية العلمية في أنّها تُسهم في الوقوف على أهم مظهرين من مظاهر الثقافة في أثناء الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن السّابع الهجري في كل من المشرق أو المغرب و الأندلس .فهي في المظهر الأوّل تميط الّلثام عن حركة التعليم و التّدريس في الأندلس والمغرب خصوصا وفي مظهرها الثاني، تُلقي الضوء على المكتبة العربية، و النشاط التأليفي خلال تلك العصور المتفاوتة، كما تكشف عمّا يتصل بحياة الكتب في الأندلس، وصلتها بما كان يؤلف في المشرق، أو العكس. ذلك أن إسم الكتاب والسّند الّذي يذكره صاحب الثَّبَت أو البرنامج ،يجعلنا نقف على هاتين المسألتين، و أي أنواع العلوم كان محتكرا أو شبه محتكر للمشارقة و أيها كان وقفا على مؤلفين مغاربة و أندلسيين ؟

وإن كان أصل هذا النّوع من الكتب، يرتدّ بوجوده إلى علم الحديث، و يحتفظ ببعض مصطلحاته و أساليبه، إلاّ أنه استقل عنه، و تفرّد بطابع خاص، يكمن في إسناد المرويات إلى العلماء والشيوخ. أي أنّ الهدف هو غير الهدف الذي وُجدت من أجله، كتب المُحدّثين الأوائل، الذين يسندون أحاديثهم إلى الرّواة الذين نقلوا عنهم. فالمرويات لم تعد كما كانت في السابق محصورة في الأحاديث النّبوية الشريفة و أسانيدها، بل

" استعمل المغاربة و الأندلسيون من تلك المصطلحات ما يلي: فهرسة، فهرس، برنامج، مسلسل، مشيخة.. [١]

راجع ذلك عند: عبد العزيز الأهوانيي،"كتب برامج العلماء في الأندلس" مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، المجلد الأول،[١] الجزء الأول، ماي ١٩٥٥، ص٩١."

تعدّتها إلى كل أنواع المرويات الأخرى، في علوم الدين و اللّغة و الأدب أو غير ذلك من أنواع "المرويات"..

وقد أدّت هذه الظاهرة غير المسبوقة في تاريخ الثقافات، بالعديد من العلماء منذ القرن السادس الهجري، إلى محاولة ضبط هذه الفهارس و البرامج ضبطا ببيليوغرافيا يسمح من النّاحية التقنية و الإحصائية، بالتّعرف على مجمل هذه الكتابات من جهة،و رصد أهم التيارات الفكرية و المذهبية المتحكمة فيها من جهة أخرى ؛ فكان أن قام ابن خير الاشبيلي في القرن السادس الهجري، بعد أن ستوفى موضوع فهرسته، بذكر سجل حافل لما رواه من كتب الفهارس الجامعة لروايات الشيوخ، والذي كتابه واحد منها .. و إبن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ه الذي ذيّل فهرسه ،فوضع فيه، مروياته عن شيوخه، المعروف بإسم (المعجم المفهرس)، خصّصه من أجل حصر كتب الفهارس السابقة عليه، و قد رتّبها كرونولوجيا، أو حسب تواريخ أصحابها، و يعدّ هذا الجزء أهم ما في المعجم من الناحية الحصرية لما سبق من الفهارس.

كما يوجد إلى جانب هذا الفهرس الحصري (أو بالمصطلح الحديث : بيليوغرافية –البيليوغرافيات) عددٌ آخر ،منه على سبيل المثال "عمدة الثبات في الإتصال بالفهارس و الأثبات" لأبي عبد الله محمد المكّي بن عزوز التونسي الجزائري الأصل(برج بن عزوز المنتمي إليه، يقع بالقرب من مدينة بسكرة المعاصر لعبد الحي الكتاني، اللّذين عاشا خلال القرن الهجري الماضي، ثمّ "فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المُعجمات والمشيخات والمسلسلات" لعبد الحي الكتّاني ذاته،

<u>فهرس الفهارس و الأثبات..لعبد الحي الكتّاني:* نموذجا.</u>

إن لهذا الفهرس الأخير،مكانة علمية كبيرة، تكمن في أنه يركز على أعلام المغرب العربي، و يغطي من الأعلام و الشيوخ و الفهارس،ممّا لم تتعرض له الفهارس و لا كتب التراجم و الأعلام المتداولة قبله.[٢٦]

يقع الكتاب في سفرين كبيرين، الأول، في أكثر من ٤٤٠ صفحة، والثاني في أزيد من ٤٩٠ صفحة، يُترجم فيهما لما يزيد عن خمسمائة (محدث و شيخ)، ويثبت لما يزيد عن مائتي مشيخة و فهرسة و ثبت، وفي أثناء ذلك، يتعرض للمُحدّثين بصفة خاصة، وللعلماء بصفة عامة، بدءا من القرن السّابع الهجري إلى الثالث عشر منه . وقد قدّم المؤلف لعمله هذا، بأربعة مقدمات، الأولى، ضمّنها ترجمة وافية للمؤلف رحمه الله (

*- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس و الأثبات ومعجم المعاجم و المشيخات والمسلسلات.

[26]- شهدت كتابة البرامج أيضا نوعا آخر، اقتصر فيه بعض العلماء على ذكر أستاذاتهم من النساء مثلما هو الشأن بالنسبة الى "معجم النسوان" لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ه.

راجع ذلك : شعبان عبد العزيز خليفة، البيبليوغرافيا أو علم الكتاب، ص١٧٨

الشيخ عبد الحي الكتاني) و ماله من مؤلفات في شتى فنون العلم، أمّا المقدمة الثانية، فقد تعرض فيها للمُترجَم لهم و للأَثبات التي يذكرها، يفرّق فيها بين الحافظ و المُحدّث و المُسند، و الثالثة، في الإسناد و فضله و الإجازة و دورها في إلحاق الأواخر بالأوائل، أما الرّابعة، فقد خصّصها للوفيات أو التراجم و أهميتهما.

ثم شرع في الكتاب بادئا بحديث الأوّلية، متتبعا في ذلك التّرتيب الهجائي المطابق للترتيب المعمول به في المغرب العربي.(أ.ب.ت.ث.ح.خ.د.ذ.ر.ز.ط...).ثم بكتُب الأوائل (و الأوائل هي كتب صغيرة الحجم وضعها أصحابها طلبا للإجازة فكتبوا جملة من أوائل مجموعة من الكتب الحديثة خاصة)، فالتّرجمة للمحدّثين وقد بلغ عدد الفهارس التي حصرها الكتّاني في فهرسه ١٢٢٥ منها ٦٦٢ بأسماء المُؤلفين و ٥٢٣ بعناوين الفهارس .. و لم يفوّت الكتّاني- كما سبقت الإشارة إلى ذلك- فرصة تعريف مصطلحاته أوالمصطلحات المتداولة في هذا المجال، فذكر معنى المسلسل و الثبت و الفهرسة و المشيخة و الإجازة وهي المصطلحات التي شملها عنوان الفهرس ذاته .[٢٧]

ـ- البيبليوغرافيات العامة أو الإقليمية والمعاجم البيبليوغرافية :

عرف العرب بالإضافة إلى البيبليوغرافيات التقليدية كالفهرست و كشف الظنون، نوعا آخر من أدوات البحث و المصادر،ي تأرجح بين البيبليوغرافية بمفهومها العلمي المتداول الآن، وبين المعاجم التاريخية مثل معجم الأدباء و غيره، إذ نجد فيها (وحتى في بعض الأعمال البيبليوغرافية القديمة) ترجمة وافية أو قصيرة للمؤلف أو العالم مع ذكر مؤلفاته أو بعض منها..

ولقد ظهرت هذه الأعمال التي تزاوج بين " الفهرسة" و الترجمة في المغرب و الأندلس أكثر من غيرها من مناطق العالم الإسلامي الأخرى، و ربما يرجع السبب في ذلك، إلى ذيوع كتابة برامج العلماء أو فهارس الشيوخ في المغرب و الأندلس، و التي تعدّ بالآلاف..و هي عديدة يمكن ذكر نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر: أسماء الكتب لرياضي زادة، الديباج المذهب لابن فرحون، ونيل الابتهاج في تذييل الديباج لأحمد بابا التنبوكتي و غيرها. و النموذج الذي نحن بصدده، يكاد لا يخرج عن هذا المنهج و هو للشيخ أبي القسم محمد الحفناوي الجزائري الموسوم بـ " تعريف الخلف برجال السلف". [٢٨]

- تعريف الخلف برجال السّلف لمحمد أبي القاسم الحفناوي نموذجا: (١٨٥٢-١٩٤٢)

ولد الشيخ الحفناوي في سنة١٨٥٢ ببلدة سيدي إبراهيم قرب مدينة بوسعادة، وهي الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر الحديثة. عاصر الهوان و التشرد الدين لقي بهما الاحتلال الفرنسي شعب و علماء الجزائر..

---

[27]- كمثال لكتب الأوائل، أوائل العجلوني، المذكور في "الفهرس"، و هو كتيب في أقل من أرعين صفحة من القطع المتوسط، جمع فيه صاحبه الحديث الأول من أربعين كتابا حديثيا..

يقول في مقدمة الكتاب عن اجتهاد علماء و مثقفي الجزائر في طلب العلم بجميع أسبابه:

« ..هذه أسماؤهم و تراجمهم مزاحمة لأسماء وتراجم أعيان الزمان في كتب المتيقظين لحفظ الطبقات العليا من عالم الإسلام في بطون الدفاتر لئلا تقع في أغوار التناسي وآبار الإهمال[٢٩]1 .»

ثم يذهب - بعدما يتحسر على التناسي الذي لقيه هؤلاء العلماء و الأولياء من طرف معاصريه- إلى ذكر مصادره، فيسرد مجموعة كبيرة منها :"ربح التجارة في مناقب سيدي أحمد بن يوسف الرّاشدي المليانى" و " سلك الدرر" و" نشر المثاني " و" كتاب الملالي في مناقب سيدي محمد بن يوسف السنوسي التلمساني " و عنوان الدراية " للغبريني و" البستان لابن مريم و غيرها..

و بذلك جمع عددا هائلا من تراجم المؤلفين و العلماء مع ذكر مؤلفاتهم،وصل ٤٢٠ ترجمة لأشخاص عاشوا بالجزائر (أو المغرب الأوسط) من القرن العشر الميلادي إلى غاية بداية القرن..

سار الحفناوي في ترتيب كتابه وفق الترتيب الهجائي، المتبّع في غالبية الأعمال البيبليوغرافية العربية الشاملة مثل " الكشف" أو الإقليمية مثل "البستان" ..لكنه،على العكس منهما، يذكر تحت كل اسم كل عالم المصدر الذي نقل منه ترجمته، إن كان مذكورا في المصدر، ويضع عند تمامها لفظة "انتهى"أو مختصرها، و يعطف عليها ترجمته في كتاب آخر إن وُجدت .

و اللافت للنظر في ذلك، أن الحفناوي قد اعتمد في هذا الكتاب كليا على الكتب المخطوطة، والسبب في ذلك راجع حسبه إلى عدم وضوح الكتب المطبوعة على الحجر، أو لأنها لا تخلو من خلل في الحروف و الأرقام..

على كل، إن " تعريف الخلف برجال السّلف" عمل مهم للباحثين في مجال النشاط العقلي و العلمي للجزائر في العصرين الوسيط و الحديث .كما يمكن اعتبار هذا العمل أداة بحث ضرورية للمشتغلين في حقل المخطوطات،ذلك لأنه يُسعفهم بالملاحظات الهامة حول الكتّاب و مؤلفاتهم..

ت - البيبليوغرافيات والفهارس الأجنبية (أو ماقدمه المستشرقون في هذا المجال)

لا تقتصر إسهامات المستشرقين على نشر المخطوطات العربية و تحقيقها أو الدراسات الفيلولوجية للمخطوط(تحقيق النصوص) أو إبراز مكانة التراث العربي الإسلامي فحسب بل تمتد أيضا إلىالكتابة عن المخطوطات (الكتب) أو البيبليوغرافيا، أي

28 - محمد أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف. جزءان، الجزائر موفم للنشر، ١٩٩١

29 – محمد أبو القاسم الحفناوي، المصدر، ج١.ص.٢.

الإهتمام بالتأريخ للثقافة و التأليف عند المسلمين ؛ حيث قام عدد كبير منهم بمجهود معتبر في هذا المجال،نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- المستشرق "شنورر Schnurrer "الذي نشر Bibliothéca Arabica باللغة اللاتنية في الفترة من سنة ١٧٩٦ إلى ١٨٠٦ م ، ثم أعاد إصداره في سنة ١٨١١ في طبعة جديد معدلة . وقد أحصى شنورر في ذلك كل المؤلفات العربية التي طبعت في أوروبا ابتداء من عام ١٥٠٥، تاريخ بداية الطباعة في أوروبا إلى سنة ١٨١٠ ، و رتبها في سبعة أقسام موضوعية ، تبدأ بالنحو ثم التاريخ فالشعر..مع كشاف مرتب ترتيبا كرونولوجيا..

- ثمّ تبعه بعد ذلك المستشرق " زنكر Zenker" ، الذي حاول أن ينجز عملا أكثر شمولا من عمل سابقه في Bibliotheca Orientalis ، حيث عمد حصر كل المؤلفات العربية و الفارسية و التركية ، منذ بداية الطباعة إلى غاية ١٨٤٠ م.

- فيكتور شوفين "Victor Chauvin ليكمّل ما بدأه شنورر في "Biblio-Arabica "،فأنجز مؤلفا ضخما في إثنتي عشرة مجلد ، سمّاه: " Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes publiés dans L' Europe Chrétienne de ١٨١٠ à 1885.

والقائمة طويلة لا يتسع هذا المقام لذكرها كلها.[٣٠]

- نموذج من فهارس المستشرقين:

« الفهرس العام لمخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية لإدمون فانيان E.FAGNAN (١٨٤٦-١٩٣١) ».

يكتسي هذا الفهرس أهمية علمية وتاريخية بالغة في مجال المخطوطات الجزائرية، بحيث يعتبر المثال الحيّ لاهتمام الجزائريين بالعلم و الثقافة العربية الإسلامية، و بذل العطاءات من أجل اقتناء المخطوطات العلمية النادرة.

عمل " فانيان" قبل توليه إدارة مكتبة الجزائرمع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أستاذا للّغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة الجزائر.ولما عهدت إليه السلطات الإستعمارية إدارة المكتبة،عمل على وضع فهرس عام لمحتوياتها من مخطوطات عربية،أسفر في سنة ١٨٩٣ على ظهور عمل ضخم يقع في ٦٩٠صفحة، تمّ طبعه بباريس من نفس السنة، به جرد لعناوين مخطوطات بأسماء مؤلفيها، يبلغ عددها ١٨٢٩، قدّم له مؤلفه بمقدمة موجزة، يشرح فيها بعض ظروف تجميع هذه المخطوطات، ومنهج تأليف الفهرس.كما قام بوضع قائمة يقبل فيهابين أرقام المخطوطات في المكتبة وبينأرقامها في الفهرس، مع الإشارة إلى أرقام المخطوطات

[30] - ج.أنجز غابريللي" G.GABRIELLI " MANUALE DI BIBLIOGRAPHIA MUSULMANA "و كارل بروكلمان و غيرها..راجع :ج.د.بيرسن ENCYCLOPEDIE DE ISLAM T 3, J.D.Pearson , in'p1233-34

المفقودة. ثم انتهى بإنجازفهرس مفصل عن موضوعات المخطوطات، و كشاف هجائي عام يحتوي أسماء مؤلفي المخطوطات وأسماء الأماكن و الموضوعات..[٣١]

يعترف "فانيان' في مقدمة الفهرس بأن ظروف الاجتياح العسكري على المدن و القرى الجزائرية غداة الاحتلال، قد حالت دون تجميع عدد أكبر من المخطوطات. ويكاد " فانيان" يصب جام غضبه في ذلك على " بربورجر" الذي لم يتمكّن حسبه من تجميع كل محتويات المكتبات الخاصة في قسنطينة (مكتبة الفكون مثلا) حتى وإن استدعى الأمر شراؤها من جنود و ضباط الاحتلال،الذين إما باعوها لمجمعيّ المخطوطات بفرنسا،أو قاموا بترحيلها معهم إلى مدنهم و قراهم. وفي هذا الصدد يعترف "إسكر ESQUER " و هو أحد مدراء المكتبة أن " العديد من المكتبات الفرنسية تمتلك مجموعات من المخطوطات مصدرها مدينة قسنطينة، و قد كانت فيما يبدو هدايا من ضباط الحملةعلى قسنطينة". [٣٢]

أما عن مصادر المخطوطات التي يحتويها هذا الفهرس، فيذهب "فانيان" إلى الاعتقاد بأن أغلبها مجهول المصدر. و ماتمّ التعرّف على خزائنه الأصلية قد جُلب من مكتبات قسنطينة الخاصة (العائلات) و العامة (المساجد).غير أنه يعتقد جازما بأنّ ما وصل مكتبة الجزائر(التي أسست بعد الاحتلال مباشرة) لا يعدو أن يكون النزر اليسير، مما تمّ جمعه، أو ماكان موجودا فعلا في مكتبات المنطقة و المدن الجزائرية الأخرى، إذ يعترف أن قسنطينة كانت من أهم المدن الجزائرية من الناحية العلمية و الثقافية خلال الرّبع الأول من القرن التاسع عشرة.[٣٣]

ثم يشير "فانيان" إلى أمكنة أخرى، قد تكون مصدر بعض المخطوطات،منها منطقة القبائل التي استُبيحت بعد ثورة الشيخ الحدّاد..

هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن الموضوعات التي تطرقها هذه المخطوطات فإنها تشمل جميع المعارف و العلوم التي كان الجزائريون والمسلمون عامة يهتمون بها، وهي التاريخ (السيرة و غيرها) وعلوم القرآن و الحديث و التصوّف والفلك و غيرها..

ومهما تكن نقائص هذا الفهرس، إلا أنّه يعد أداة بحث أساسية بالنسبة للباحثين و المحققين، لأنه يشمل على العديد من المعلومات حول المخطوطات ليس فقط ذات المصادر المذكورة بل أيضا من مصادر أخرى يمكن أن تكون جهات أخرى من الجزائر أو خارجها..

---

31 –E.FAGNAN , CATALOGUE GENERAL DES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHEQUE D'ALGER.2° ed.BIBLIOTHEQUE NATIONALE D'ALGERIE , 1995.680p.

32 –F.LALOE, op.cit, p.107.

33 – OP.CIT, P.1

- خاتمة:

و في نهاية المطاف يمكن القول بأن مجال الاشتغال بالمخطوطات في الجزائر- باعتبارها إرثا مهما في التاريخ العقلي و الاجتماعي- لا يزال بكرا..ذلك لأن الاهتمام به جديا، لم يعرف انطلاقته الحقيقية، التي من شأنها أن تخلق ديناميكية مثل التي عرفه المشرق العربي، و مصر على وجه الخصوص، في بداية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين.. و الملفت للاهتمام، قبل هذا و ذاك،هو أن المخزون من المخطوطات الإسلامية في الجزائر،ليس في المكتبات الحكومية- و إن كان جزء منها موجودا في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة وجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة- و إنما في خزائن العائلات و الزوايا المنتشرة في كل أنحاء القطر و الجنوب منه على وجه الخصوص. فإذا علمنا أن عددها حسب إحصائيات ٢٠٠٣ يبلغ حوالي ٨٩٠٠ زاوية و٣٥ زاوية تعليمية(معاهد تعليمية شبه عليا)، و أن بزوايا منطقة أدرار وحدها حاليا ما يربو عن ١٢ ألف مخطوطا، بعدما كان يفوق ٢٧ ألفا خلال القرن الماضي، لأدركنا إن الأمر أعقد مما قد يتصوره البعض..